ابن خلدون..
فلسفته الاجتماعية

الفصل السابع

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

العصبيَّة

استطاع ابنُ خلدون أن يُبْدِيَ ملاحظةً عامةً جدًّا عن الدول التي رأى قيامها حَوْلَه، وذلك أن الأمم التي أبصرَ العَصَبات فيها يُخْضعون بقيةَ الأهلين ويُوطِّدُون سُلطانًا سياسيًّا ثابتًا هي بعينها تلك التى كانت تقضي حياةَ شظفٍ وكانت ذات عاداتٍ قليلة الرِّقة وحضارةٍ قليلة التقدم، ولذا لم يكن النصُر مدينا لصفاتٍ يمكن أن تنعم بها على الناس حضارةُ زمنه، وذلك فضلاً عن أن الأسلحة التي تتصرف فيها العصاباتُ عند الصِّراع كانت مُتَمَاثلة، فلم يكن هنالك أيُّ تَفَوُّقٍ حقيقيٍّ ناشىءٍ عن عُدَّة الحربِ بالمعنى الصحيح، ولا بُدَّ من السيَّر حتى القَرنِ الثامن عشر حتى يُدرِك أن المدافع ضمانٌ ضدَّ البربرية على كُل حالٍ، وكان الفرقُ في الأساليب الفنية، حتى الحد الذي تُمَثِّل فيه دورًا متزايدًا، محسوسًا قليلاً حتى ذلك الحين، ولذا فإن مؤلِّفنا يوضحُ الاستعداد لنَيل الانتصارات بأسبابٍ أدبية يتوقَّفُ عليها تماسك الزُّمَر المتقابلة.

وهو يجدُ هذه الصفات الأدبية، التي تَحْمِلُ قوة الهجوم لدى المجتمع إلى أعلى درجة، في القَبَائِلِ التي تَقْضِي حياةً بَدَويَّة، وهذه القبائلُ هي

obeikandl.com

التي تلوح له أنها الأكثرُ استعدادًا بنجاح وعناد" والأممُ الوحشيةُ أقدرُ على التغلُّب ممن سواها"، وهو يُدْلي بالقاعدة الدقيقة القائلة:" ومَنْ كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثرَ توحُّشًا كان أقربَ إلى التغلب على سواه إذا تَقَاربَا في العَدد وتكافآ في القوة"، وفضلاً عن ذلك فإن آخرين بعد ابن خلدون لا حظوا في الغالب أن أمم البرابرة، أي أهلَ البدو، هم الذين قاموا في الغالب بفتوحات واسعة وأقاموا دولاً عظيمة، فالتاريخ يَعْرِضْ علينا أمثلةً كثيرةً عن ذلك كغارة البرابرة في أواخر الإمبراطرية الرومانية وكفتوح المغول والعرب والترك، إلخ.

بَيْدَ أن الفيلسوف التونسيَّ المخلص لِمنْهاجه يقومُ بإيضاح على شيءٍ من المادية حول أصل هذه الصفات الأدبيَّة التي تَتَجلَّى في الأمم البدويَّة إلى أعلى درجة، وليست العِللُ التي يستند إليها مزيةً خاصة بهذا العِرْق أو ذاك البلد قطعًا، وإنما هي أحوالُ عيشٍ، تُنمي، لا محالة، صفاتٍ لازمةً لدى من يُعانون هذه الأحوال من الناس.

ومن شأن الحياة في البادية ضِمْنَ أحوالٍ من الاطمئنان الاقتصاديِّ غيرِ ثابتةٍ إلى الغاية أن تقضي في بدء الأمر لدى من يكابدُونها أكثرَ من حِرْمَانٍ وأن توجب قضاءهم حياةَ زُهد، ويكون أهل البدو من ناحيةٍ أخرى عُرْضَةً لغارات الأعداء وقُطَّاع الطُّرُق أكثر من غيرهم، والواقعُ أنهم يعيشون زُمرًا صغيرةً وذلك لأن من المتعذر جمع قطاعٍ كبيرة في عين المكان عندما لا يُتصَّرف في غير مراعٍ جديبة، وتكون هذه الزمر الصغيرة في بَرِّيَّة مكشوفة، ولاتكون عندها أسوارٌ ولا حصونٌ تحميها كما تَحْمِي سكان المدن، ولذا فإنهم مُضطَرُّون أن يكونوا على حذرٍ دائمًا، فلا يَعْتَمِدون عند الغارة على غير شجاعتهم الخاصة وعلى نجدة أصحابهم،" وأهلُ البدو... لانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالدفاع

عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائمًا يحملون السلاح ويتلفتون عن كلِّ جانب في الطُّرُق ويتجافون عن الهُجُوع إلا غرارًا في المجالس وعلى الرِّحال وفوق الأقتاب ويتوجَّسون للنَّبَآت والهيعات ويتفردون في القَفْر والبَيْداء مدلين ببأسهم واثقين بانفسهم قد صار لهم البأس خُلُقًا والشجاعة سجيَّةً".

ومن أهمِّ السجايا التي يُنميها هذا النوع من الحياة هو التضامن الوثيقُ بين أعضاء عين الزُّمرة المستعدين دائمًا لتأييد بعضهم بعضًا بلا قيد، ويؤدي هذا التضامنُ، المقترن ببسالة عظيمة وبحس الحماية المتقابلة، إلى نوع من التضامن قِتَالِّي يسميه ابن خلدون "العصبية"، فإذا ما وُضِع مجموعُ هذه الصفات، التي لا بُدَّ مِنْهَا للعيشِ في خَطر البادية، في خدمة داعٍ سياسيٍّ، ضمن له قدرة عظيمة جدًّا تتيح له عند كونِ قواه المادية أقل كفايةً- من حيث العَدَدَ، إلخ...) أن ينال النصر بسهولةٍ على عدوٍّ أقلَّ نشاطًا والتحامًا.

وعند ابن خلدون يتألفُ "الشرف" الحقيقي من العصبية التي أَشَرنَا إلى تكوينها كَمَا وصفها، ولا جوز في هذا الموضوع أن ينسى أن المسالة كانت مهمةً جدًّا في ذلك الحين، فقد كان يُعْتَقَدُ وجودُ شرفٍ فقط، أي وجودُ عليَّةٍ ذات نطق محددة جيدًا فيُحبى أعضاؤها بامتيازات مختلفة ناشئةٍ عن النسب، ولذا كان من المسائل المهمة أن يناقش حول خصائص الشرف، وهذا يعني تساؤلاً عَمَّن يجب أن يُحْتَفظَ لهم بالسلطان السياسي وبمناصب الدولة المهمة المثمرة، ومما يعلم كيف حُلَّت المسألة في أوربا النصرانية، ولكن المسألة بقيت أكثر تعقيدًا في البلاد الإسلامية، ولا سيما إفريقية الشمالية، ولم يُمْكِن قيامُ أريستوقراطية ثابتة في المراكز عن عدم الثبات في السلطة السياسية، ومن ناحيةٍ أخرى كان روح الاستقلال الجامح في القبائل البدوية مانعًا عظيمًا من قيام نظام إقطاعي، وحاصلُ

القول: إنه لم يوجد عند البربر تقاليدُ قديمةٌ ناشئةٌ عن عاداتٍ ديمقراطية نُصَّ على مشابهات بينها وبين نُظُم المُدُن اليونانية.

وعند ابن خلدون أن العصبية هي عنوانُ الشرف الوحيدُ، أي العنوانُ الذي يؤدي إلى تخصيص زمرة معينة للقبض على زمام السلطة، ويُمكن أسرةً مالكة، أو زمرة إذا ما كانت كثيرة العدد وذات تبع مخلصين حقًّا، أن تشيد سلطانها وتديمه بفعل سلامة شعورها في الذَّبِّ عن الحِياض وما يساور أعضاءها من روح الهجوم، والخلاصةُ هي أن هذا هو حذر البدويِّ الدائم الذي يدرك ابن خلدون انتقاله به من استعداد النفس الحربيِّ إلى الحياة السياسية.

وينتقِد ابن خلدون بشدَّة كلَّ مبدأ آخر للشرف، فبما أنه أقام بالأندلس حيث ازدهرت حضارة مدنية أكثرً ثباتًا مما في إفريقية الشمالية، وحيث أشعرت مفاهيم أوربا الغربية بنفوذها، فقد أبصر أن لمسلمي هذا البلد مبدأ عن الشرف غير الذي يقول: إنه مستمدٌ من مخالطة بدويي إفريقية الغِلاظ. فيشتاط غيظًا، ويقول ابن خلدون، بعد بيانه وجه الخطأ في تفويض أهم الأمور إلى أناسٍ ليس لدى أسرهم من الوسائل ما ينفِّذونه معه:" وأكثر ما يقعُ في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لِفُقْدَان العصبية في مواطنهم منذ أعصارٍ بعيدة بفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن مَلَكَةِ أهل العصبيات من البربر(أي المرابطين والموحدين الذين خلفوهم) فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة إلى العِزِّ من العصبية والتناصر مفقودة، بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبَّدهم القهر ورئموا للمذلة يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة التي يكون لهم بها الغلب والتحكم، فتجد أهل الحِرَف والصنائع منهم متصدِّين لذلك ساعين في نيله، فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعُدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر فقلما يلغطون في ذلك ويخطئون في اعتباره".

وقد عرض ابن رشد آراءً مماثلة لرأي مسلمي الأندلس الشائعِ فانتقده ابن خلدون بشدةٍ حيث قال:" وقد غَلِطَ أبو الوليدِ بن رُشدٍ في هذا لَّما ذكر الحسبَ.. والحسبُ هو أن يكون من قومٍ قديمٍ نُزُلُهُم بالمدينة، ولم يَتَعَرَّض لما ذكرناه، وليت شِعَّرِي ما الذي ينفعه قِدَمُ نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عِصابةٌ يُرْهَبُ بها جانبه وتحمل غيرَهم على القبول منه".

ولذا لا تقوم فلسفةُ التاريخ وحدها عند ابن خلدون (وذلك من حيث عدم اعتبارِها غيرَ الحوادثِ المهمة جدًّا، كإقامة الدول الجديدة، إلخ...)، على تطوير العصبية، بل يقوم على هذا التطور، أيضًا، ما يَقَعَ من تغيير لا ينقطع في حال الناس، وهو ما سَمَّاه باريتو " دورة الخواص[1]"، أي الارتقاءَ الاجتماعي لبعض الأفراد أو بعضِ الأسرِ، ومما يجبُ أن يلاحظ هنا ما أَبْدى ابنُ خلدون من إقدامٍ في هذه المسألة الدقيقة كما هو واضح، أي في مسألة الشرف التي لا يري فيها غيرَ انعكاسٍ بسيطٍ لبعض أحوال العيش، وتَجِدُ لهذا الأمرِ، أيضًا، صلةً بازدرائه للفرد، فيظهُر بهذا مُبَشِّرًا بكثير من علماء الاجتماع المعاصرين المُعْتَبرين.

وتَضْعُفُ العصبيةُ عند ما تعود الأحوالُ التي تُعَيِّنها لا تحقق، فإذا ما ارتقى بعضُ الأفراد نشأ عن هذا انتشارُ حياة أبنائه ضِمْنَ جوٍّ من الأمن والتَّرف يُرْخِي نشاطهم ويُوهِنُ عزائمهم، على حين يَبْلُغُ ميلهم إلى النعيم والملاذِّ من التأصُّل ما يؤدي إلى فسادهم التامِّ، ويرى مؤلفنا أن هذا التطور أمرٌ مُقَدَّرٌ في خطوطِه الكبيرة ودوامه" والحسبُ من العوارض التي تَعْرِضُ للأدميين.. ثم إن نهايته في أربعة آباء"، وهو يشير إلى المظاهر النفسية لهذا التطور الذي يعالجه حتى الحدِّ الأخير،" وذلك أن بانيَ المجِد عالِمٌ بما عاناه في بنائه ومحافظٌ على الخِلال التي هي أسبابُ كَوْنِه وبقائه، وابنه من بعده مباشرٌ لابيه، وقد سَمِعَ منه ذلك

(١) انظر: إلى ف. باريتو، مباحث علم الاجتماع.

وأخذه عنه، إلا أنه مُقَصِّرٌ في ذلك تقصيرَ السامع بالشيء عن المُعَانِي له"، بَيْدَ أن ذكرى هذه الخِلال تسير مع الامحَّاء حتى ابن الحفيد الذي" يَتَوَهَّمُ أن ذلك البُنْيَانَ لم يَكُنْ بمُعاناةٍ ولا تكلُّفٍ، وإنما هو أمرٌ وجب لهم منذ أول النشأة بمجرَّد انتسابهم".

وهكذا فإن عادة السُّلُطات والغِنىَ والسيطرة تبطل بالتدريج، لدى من يتمتعون بها، من الخِلال ما هو ضروريٌ لنيل هذه الامتيازات، وإذا ما تقدَّم الزمنُ قليلاً لا يقتصر الأمرُ على زوال الوسائل لنيل هذه المنافع، بل يُرى أن أبناء الأُسَر المسيطرة عاجزون حتى عن المحافظة على مقامهم الرفيع، ويتكلفُ ابن خلدون أن يُسْبغ كما رأينا دِقَّةً بالغةً على هذا التطور النفسي العامِّ الذي يَرْسُم خطوطَه الكبيرة، فعنده أن من الواجب أن يَدُومَ أربعةَ أجيال هذا التطورُ الذي يسيرُ من ارتقاءٍ جدٍّ حسن الموهبةِ على الخصوص إلى زوال جميع خِلاله لدى ذريته الذين أفسَدَهم فَرْطُ الترف وما يُلاقون من سهولة، ومما تجبُ أن يلاحَظ حَوْلَ هذه النقطة كونُ مؤلِّفنا يُحَدِّد للجيل مدةً أعظمَ من التي يُتَّفَقُ على تحديدها له في أيامنا على العموم، ويَذْهَبُ ابن خلدون إلى أن المدة أربعون سنة،" والجيلُ هو عُمُرُ شخصٍ واحدٍ من العُمُر الوَسَط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النموِّ والنشوء إلى غايته".

ولقد أسهبنا في تفاصيل نظرية العصبية لدى ابن خلدون، وذلك لأنها حَجَرُ الزاوية لجميع فلسفته، وعلى هذه النظرية يقومِ علْمُه النفسيُّ وأدبه وفلسفة تاريخه، وإذا ما بُحِثَ عن مماثِلات في الطُّرُق الحديثة أمكن أن يقال: إن فلسفة العصبية هي فلسفة التضامن، فهذه الخاصِّيَّةُ تُعَبِّر عن بأس هيئةٍ اجتماعيةٍ، عن قوةِ زمرةٍ معينة من آلادميين، وذلك بأن يدل على تكاتف أعضائها وتفانيهم في سبيل الباعث المشترك، وقد وجد مؤلفنا هذا الشعورَ، على الخصوص في الزُّمر

الضَّيِّقة التي هي على مثال العَصَبة القديمة، أي الأفرادِ الذين جَمَعَتْ بينهم صلة القرابة، إن لم تَكُنْ لَحًّا، ومحاسيبهم ومن تَبَنَّوهم من الأشخاص في بعض الأحيان، فهو يقول:" إن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه"، وهو لم يَلْبَث أن يضيف إلى هذا قوله:" إن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفرْ"، ويمكن إيضاح هذا على التدفيق، وهذا لأن عُزْلَةَ القبيلة في البادية تُسَهِّلُ حظْرَ التَّصَاهُر إذا لم يوجد نظمٌ تحرِّمه.

ولم يكن عصره حتى في الحياة السياسية، ليدله على زمرٍ متحدة حقًّا، على زمر واسعِة المدى، وذلك عدا الجماعة الدينية التي كانت خاليةً من التأثير السياسي، ولم يكن الشعور القوميُّ موجودًا لدى أيٍّ من الأمم التي كان يعرفها، وحاصلُ القولِ: أنه ما كان ليُمكن الكلامُ عن غير الارتباط في بيتٍ مالك أو الولاء له، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الروابط كانت تَبْقَى ضعيفةً إلى الغاية، وإن دول ذلك الزمن كانت تتألفُ من مجموعة من المدنيين والقرويين الذين هم أكثرُ ما يكونون هَيِّني الأخلاق سلبيين، وأما القبائل النشيطة المشاغبةُ فقد كانت مستعدةً، دائمًا للتمرد عند نداء مطالبٍ بالعرش، وما كان البيتُ المالك ليستطيع الاعتماد على غير شيعته، وكان هذا المتراسُ الأخيرُ يَغْدُو قابلاً للزوال عندما تضعف العصبية.